مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد للـه، والصـلاة والسـلام علـى رسول الله، أما بعد:

فإن الأمة تمر بأحوال غريبة، وأهـوال عصيبة، فالخطوب تحيط بها، والأمم من كل مكان تتداعى عليها.

وإن مما يلفت النظر في هذا الشـأن غفلـة الأمـة عـن التوبـة؛ فـإذا تحـدث متحدث عن التوبة تبادر إلى الذهن توبة الأفراد فحسـب، أمـا توبـة الأمـة بعامـة فقلَّ أن تخطر بالبال.

وهذا مـن الأخطـاء فـي بـاب التوبـة؛ ذلك أن سـنته_عـز وجـل_ فـي الأفـراد، وفـي مغفرتـه للتـائبين وعفـوه عـن المـــــــــــــــــذنبين _ هي هـي سـنته_ سـبحانه_ فـي الأمـم والشعوب.

فالأمة التي تعود إلـى طريـق الرشـاد،

وتَصْـدُق فـي التوبـة والإنابـة إلـى رب العباد_ يفتح الله لهـا، ويرفـع مـن شـأنها، ويعيدها إلى عزتها ومجدها، وينقـذها مـن وهدتها التي انحدرت إليهـا، وينجيهـا مـن الخطوب التي تحيط بها؛ نتيجـة الـذنوب التي ارتكبتها، والمنكرات الـتي أشـاعتها من شرك، وبدع، وحكـم بغيـر مـا أنـزل اللـه، ومـوالاة لأعـداء اللـه، وخـذلان لأوليائه، وتقصير فـي تبليـغ دعـوة اللـه، والأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، وتركٍ للصلوات ونحو ذلك مما هو مؤذن بالعقوبـة، وحلـول اللعنـة كالربـا والفسـوق، والمجـون، ونقـص المكاييـل وغير ذلك.

فإذا تابت إلى ربهـا متعهـا اللـه بالحيـاة السـعيدة، وجعـل لهـا الصـولة والدولـة، ورزقهـا الأمـن والأمـان، ومكـن لهـا فـي الأرض.

قال_ تعالى_ :[وَعَدَ اللَّهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِنْكُـمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِـي الأَرْضِ كَمَـا اسْـتَخْلَفَ الَّـذِينَ مِـنْ

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّـذِي ارْتَضَـى لَهُـمْ وَلَيُبَـدِّلَنَّهُمْ مِـنْ بَعْـدِ خَـوْفِهِمْ أَمْنـاً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِـي شَـيْئاً] النـور: 55.

وإذا أردت مثالاً على توبة الأمـة مـن القرآن الكريم فانظر إلى قوله_تعالى_: [فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَـا إِيمَانُهَـا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّـا آمَنُـوا كَشَـفْنَا عَنْهُـمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ] يونس: 98.

وهؤلاء القوم الذين ذكـروا فـي هـذه الآيـــة هـــم قـــوم يـــونس _عليه السلام_ وقريتهم هي نينوى الـتي تقع شرقي مدينة الموصل فـي شـمالي العراق.

ومعنى الآية_ كما يقول المفسـرون_ : أن قـــــوم يـــــونس _عليه السلام_ لما أظلهم العذاب، وظنوا أنه قد دنا منهم، وأنهم قد فقدوا يونس _ قذف الله في قلوبهم التوبة، وفرقوا بيـن كل أنثى وولدها، وعَجُّوا إلى اللـه أربعيـن

ليلة_ أي رفعوا أصواتهم بالتلبية والدعاء_ فلما علم الله منهم صدق التوبة كشف عنهم العذاب، وقال: [وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ] يونس: 98.

أي لم نعاجلهم بالعقوبة، فاستمتعوا بالحياة الدنيا إلى حين مماتهم وقت انتهاء أعمارهم.

فما أحوج أمتنا اليوم أن تعج إلى الله منيبة تائبة، ليرضى عنها، ويرفع عنها ما هي فيه من الذلة، والمهانة، والخيبة، والتبعية لأعدائها.

هذا ومما يجب على الأمة في هذا الباب زيادة على ما مضى ما يلي:

1_ التوبة من الإسراف: فالإسراف نذير شؤم، ومؤذن هلاك؛ فهو يفضي إلى الفاقة، وينزل بأهله إلى طبقة المقلين أو المعدمين.

والإسراف في الترف ينبت في النفوس أخلاقاً مرذولة من نحو الجبن، والجور، وقلة الأمانة، والإمساك عن

البذل في وجوه الخير.

أما أن الإسراف في الترف يدعو إلى الجبن فلأنَّ شِدَّةَ تعلق النفوس بالزينة واللذائذ يقوِّي حرصها على الحياة، ويحملها هذا الحرصُ على تجنب مواقع الحروب، وإن كانت مواقف شرف وذود عن الدين، والنفس، والمال، والعرض.

وأما أن الإسراف في الترف يسهل على النفوس ارتكاب الجور فلأن المنغمس في الترف يحرص على اكتساب المال ليشبع شهواته، فلا يبالي أن يأخذه من طرق غير مشروعة، فيمد يده إلى الاستيلاء على ما في يد غيره من طريق الرشوة، أو من طريق الغصب إن كان ذا سلطان وقوة.

وأما أنه يَذْهَبُ بالأمانة فلأن الغريق في الترف إنما همُّه الوصولُ إلى زينة أو لذة، أو مطعم ونحوه _ كثيراً ما تدفعه هذه الشهوات إلى أن يخون من ائتمنه، فيمد يده إلى المال الذي ائتُمن

عليه، وينفقه في شهواته الطاغية.

وأما أنه يمسك الأيدي عن فعل الخير فلأن من اعتاد الترف حتى أخذ بمجـامع قلبه كان أعظم قصدِه مـن جمـع المـال إنفاقَه فيما يَلَذُّه من مأكول، أو يتزين به من نحو ملبوس أو مفروش.

لـذلك كـان الغـالبُ علـى المـترفين المسـرفين قبـضَ أيـديهم حيـث يبسـط غيرهم يده؛ إسعاداً لذوي الحاجـات مـن الفقراء والمنكوبين، أو إجابـة لمـا تـدعو إليه المروءة والمكارم.

ومن هنا نستبين أن للإسـراف سـيئةً أخرى هي قطع صلة التعـاطف والتـوادد بين كثير من أفراد الأمة.

ولهذا تجد مـن الموسـرين المـترفين مـن ينفـق الأمـوال الطائلـة فـي سـبيل لذَّاته وشياطينه، وإذا سئل بـذل القليـل في مشروع جليل أعرض ونأى بجانبه.

هذا وللإسراف فـي الـترف أثـر كـبير في إهمال النصيحة والدعوة إلى الحـق؛

ذلك أن من اعتاد التقلب في الزينة، وألفت نفسُه العيش الناعم_ يغلب عليه الحرص على هذا الحال؛ فيتجنب المواقف التي يمكن أن تكون سبباً لفوات بعض النعيم.

وللإسراف أثر في الصحة؛ فقد دلت المشاهدات على أن المسرف في نحو المأكل والمشرب لا يتمتع بالصحة التي يتمتع بها المقتصدون فيما يأكلون ويشربون.

والإسراف في الترف يقل معه النبوغ في العلم؛ ذلك أن النفس المحفوفة بالرفاهية من كل جانب يضعف طموحها إلى اللذات العقلية؛ لأنها في لذة قد تشغلها أن تطلب لذة كلذة العلوم طلباً يبلغ بها مرتبة العبقرية.

ومن الجلي أن مرتبة العبقرية لا تُدْرك إلا باحتمال مصاعب، واقتحام أخطار، والمسرفُ في الترف ضعيف

العزيمة لا يثبت أمام المكاره والشدائد.

هذه بعض مضار الإسراف؛ فحق الأمة التي تريد النهوض من كبوتها أن تقلع عن الإسراف في الرفاهية، وتضع مكان الإسراف بذلاً في وجوه البر والإصلاح؛ فمما تشكو منه الأمة إطلاق الأيدي بإنفاق المال في غير جدوى، وتدبير المال على غير حكمة وحسن تقدير.

قال العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي × : =إن أمة تنفق الملايين في الشهر على القهوة والدخان، وتنفق مثلها على المحرمات، وتنفق مثلها على البدع الضارة، وتنفق أمثال ذلك كله على الكماليات التي تنقص الحياة ولا تزيد فيها، ثم تدَّعي الفقر إذا دعاها داعي العلم لما يحييها _ لأمة كاذبة على الله، سفيهة في تصرفاتها+.

وقال ×: =المال الذي تنفقه في المحرمات يسوقك إلى النار، والمال

الـذي تبـدده فـي الشـهوات يجلـب لـك العــار، والمــال الــذي تــدخره للورثــة الجاهلين تهديه إلى الأشرار، وتبوء أنــت بالتبار والخسار.

أمـا المـال الـذي تحيـي بـه العلـم، وتميت به الجهل_ فهو الذي يتوجك فـي الـدنيا بتـاج الفخـار، وينزلـك عنـد اللـه منزلة الأبرار+.

ولا يعني التحـذير مـن الإسـراف فـي الترف أن يكون الناس على سنة واحدة من الإعـراض عـن الزينـة والملاذِّ؛ فقـد قـــــــــــــــــــــال _تعالى_ :[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّـهِ الَّتِـي أَخْــرَجَ لِعِبَــادِهِ وَالطَّيِّبَــاتِ مِــنْ الــرِّزْقِ] الأعراف: 32.

وإنما المقصود من ذلك الـدعوةُ إلـى أخـذ النفـوس بالاقتصـاد، وحمايتهـا مـن الإفراط في الزينة واللذيذ من العيش.

ولهذا سـلكت هدايـة القـرآن الكريـم بالناس هذا الطريق القويم، وهو طريــق

الاقتصاد؛ فبعد أن أمر في آيات كثيرة بالإنفاق في وجوه الخير نهى عن الإسراف نهياً بالغاً، فقال _ تعالى_: [وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً] الإسراء: 29.

وألحق المبذرين بقبيل الشياطين فقال_ تعالى ـ[إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ]الإسراء: 27.

وعدهم في زمرة من يستحقون بغضه فقال_عز وجل_: [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] الأعراف: 31.

وأثنى على عباده المؤمنين بفضيلة الاقتصاد فقال: [وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً] الفرقان: 67.

وإذا كان الإسراف يوقع الأفراد والجماعات في مضارّ كثيرة كان واجباً على أولياء الأمور ودعاة الإصلاح أن

يتعاونوا على الجهاد في هذا السبيل؛ حتى يبتعد الناس عن الإسراف في مآكلهم، ومشاربهم، وملابسهم، ومراكبهم، ومساكنهم، وأمتعة بيوتهم.

وحين يُحذَّر من عواقب الإسراف، ويُدعى إلى الاقتصاد _ يبين أنه لا فضيلة في الاقتصاد إلا بعد أن يؤدي الرجل حق المال من نحو النفقات الواجبات عليه لأقاربه، والزكوات المفروضة لأهلها، وبعد أن يبسط يده بالإعانة على بعض المصالح العامة كإنشاء مساجد، أو مدارس، أو مستشفيات، أو ملاجئ، أو إعداد وسائل الاحتفاظ بسيادة الأمة والدفاع عن حقوقها.

2_ التوبة من التبعية الثقافية والفكرية: فمما يؤسف عليه، ويندى له جبين الحق ما يُرى من حال كثير من مثقفينا ومفكرينا؛ فلا تراهم يرفعون بالإسلام رأساً، ولا يَهُزُّون لنصرته قلماً، ولا يحفلون إلا بزبالة أفكار الغرب، ولا

يثقون إلا بما يصدر من مشكاته.

إن كثيراً من هؤلاء الذين تخرجوا في المؤسسات الحضارية الغربية، وعاشــوا فــي المجتمعــات الإســلامية_ يجهلــون الإسلام جهلاً كاملاً.

ولا يعني ذلك الجهل أنهم لم يسمعوا بالإســلام، أو أنهــم لــم يحفظــوا فــي صــغرهم شــيئاً مــن الآيــات الكريمــة والأحاديث الشريفة، أو أنهم لم يسجدوا لله يوماً من الأيام سجدة، أو لم يعرفوا أخبــار رســول اللــه"وصــحابته الكــرام _رضوان الله عليهم ـ.

لا، ليس الأمر كذلك، وإنمـا المقصـود أن هـؤلاء يجهلـون نظـرة الإسـلام إلـى الكون، والحياة، والإنسان.

ويجهلـون حقـائق الإسـلام، وشـرائعه الحكيمة، ومقاصده النبيلة.

ويجهلون قيم الإسلام،ومُثُلَه،وأخلاقه، وخصــــائص حضــــارته، وتطوراتهـــــا، ومراحلها.

ويجهلون أسباب تقدم المسلمين في التاريخ، وأسباب تأخرهم.

ويجهلــون القــوى الــتي حــاربتهم، والمؤامرات الـتي نسـجت عـبر التاريـخ للقضاء عليهم.

فهــؤلاء الــذين نســميهم مثقفيــن ومفكريــن عنــدما واجهــو الغــرب، وحضارته، وفنه، وأدبه_ لـم يواجهـوه إلا بعقـول خـواء، وأفئـدة هـواء، ونفـوس مجـردة مـن معـاني الأصـالة والعـزة والأنفة؛ فلم يواجهوا الحضارة الحاضـرة مواجهة مدركة، فاحصة، مقوّمة.

وإنمــا واجهوهــا مواجهــة ســطحية تنطلـق مـن مـواطن الجهـل، والذلـة، والشعور بالهزيمة، فانبهروا بكل ما فيها دونما تمييز بين الحق والباطل، والضــار والنـافع؛ فنكسـوا رؤوسـهم حِطَّـةً أمـام الغرب.

ولهـذا تراهـم يَهُشـُّون ويطربـون إذا ذكر اسـم فرويـد، أو نيتشـه، أو ت. إس

إليوت، أو ماركيز، أو غيرهم من مفكري الغـــرب علـــى اختلاف توجهـــاتهم ومدارسهم الفكرية.

وإذا ذكــر اللــه ورســوله اشــمأزت قلــوبهم، واســتولى عليهــم الشــعور بالهزيمة والذلة.

ومـن هنـا فـإن مثقفينـا _ فـي فـروع الحياة كلها إلا من رحم ربك_ قد نقشـوا ما عند الغربيين، وظنـوا أنـه لا ثقافـة إلا ثقافتهم، ولا أدب إلا أدبهـم، ولا واقـع إلا واقعهم؛ فهم جهلـوا الإسـلام وحضـارته، وعرفوا كل شيء عن الغرب.

وأكثر هؤلاء لا يتبرؤون مـن الإسـلام، بل يصرحون بانتمائهم للأمة الإسلامية.

ولكنهـم يفهمـون الإسـلام مـن إطـار المفهوم الغربي للدين.

والمفهوم الغربي للدين يتلخـص فـي أن الدين عبارة عن رابطة فردية خاصـة بيــن الإنســان وربــه؛ فالإنســان يــؤمن بمجموعــة مــن القيــم والأخلاق الــتي

يستقيها من إيمانه بالله، تصوغ شخصيته، وتجعل منه إنساناً اجتماعياً يستقيم سلوكه العام في إطار الإيمان الديني.

أما الحياة بشمولها فإنها_ في نظرهم_ لا بد أن تخضع لحركة العقل المتغير عبر الزمان والمكان.

يقول الدكتور محسن عبدالحميد_ أحد علماء العراق_ : =من خلال عشرات المواقف الأليمة جداً التي مرت في حياتي التدريسية، والتي أثبتت لي بشكل قطعي هذا الجهل العام بين كثير من مثقفينا للإسلام أروي الحوادث الآتية:

* في محاضرة عامة لاقتصادي مسلم استعرض المذاهب الاقتصادية كلها منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث في مختلف الملل والنحل، ولم يتطرق إلى الإسلام أو حضارته في مجال الاقتصاد منهجاً وعلماً.

فلما سُئل عقب انتهاء المحاضرة عن سـبب ذلـك قـال بـالحرف الواحـد: أنـا متأسف؛ لأنني لا أعرف عن وجهة نظــر الإسلام في هذا الموضوع شيئاً.

ولما أهدي له فيما بعـد كتـاب حـول أحكـام الاحتكـار فـي الفقـه الإسـلامي تعجب كثيراً، وذكر أنه لم يكـن يظـن أن الفقهاء بحثوا مثل هذه الموضوعات.

* وحضــرت مــرة مناقشــة رســالة علميــة فــي الفقــه الجنــائي الإســلامي مقارناً بالفقه الجنائي الغربي_ استغرب منـاقش قـانوني فـي اللجنـة أن يكـون فقهـاء المسـلمين قـد ناقشـوا بعمـق نظرية قانونية كان هو يعتقد أنها نظريـة غربية صِرْفة.

* وكنــا نتنــاقش يومــاً فــي غرفــة الأساتذة حول وضع المرأة في الإسلام؛ فانبرى أحد المختصين في علم الاجتماع فقـال: إن الإسـلام ظلـم المـرأة عنـدما جعل الرجل قوَّاماً عليها.

فلما سألناه: ما المعنى اللغوي للقوامة في الآية الكريمة حتى نحدد موقفنا منه_ تلعثم ولم يعرف معناها.

فقال له أحدنا: كيف تصدر يا أستاذ هذا الحكم الظالم على الإسلام وأنت لا تعرف معنى القوامة؟+

ثم إن نظرة كثير من أولئك تجاه المسلمين وقضاياهم هي هي نظرة الغرب؛ فالغرب يرى أن الإسلام دين قسوة وهمجية، وأن أهله قساة عتاة أجلاف غلاظ الأكباد.

وينطلي هذا الهراء على كثير من أولئك المثقفين، فيسايرون أعداءهم، ويسيرون في ريحهم، وما علموا أن الإسلام دين العدل والرحمة، وأن أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس.

وما الحسام الذي يأمر الإسلام بانتضائه للجهاد في سبيل الله إلا كمبضع طبيب ناصح يشرط به جسم العليل؛ لينزف دمه الفاسد؛ حرصاً على

سلامته.

وما الجهاد _دفعاً كان أو طلباً_ إلا تخليص للعباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وما هو إلا وسيلة للحياة الكريمة العزيزة الطيبة.

وأمة الإسلام خير أمة جاهدت في سبيل الله فانتصرت، وغلبت فرحمت، وحكمت فعدلت، وساست فأطلقت الحرية من عقالها، وفجرت ينابيع المعارف بعد نضوبها.

واسأل التاريخ؛ فإنها قد استودعته من مآثرها الغرِّ ما بَصُر بضوئه الأعمى، وازدهر في الأرض ازدهار الكواكب في كبد السماء.

فماذا فعل المسلمون لما انتصروا على خصومهم؟ ماذا قال النبي_ عليه الصلاة والسلام_ لما انتصر على قريش وفتح مكة؟ ألم يصفح عنهم؟ وينس ما فعلوه به؟

وماذا فعل المسلمون لما انتصروا على كسرى وقيصر؟ هل خانوا العهود، وهل انتهكوا الأعراض؟ وهل قتلوا الشيوخ والأطفال والنساء؟

وماذا فعل صلاح الدين لما انتصر على الصليبين؟ ألم ينعم على قائدهم بالعفو؟ ألم يعالجه، ويطلق سراحه؟

فهذه المواقف وأمثالها كثيرة في تاريخ المسلمين، مما كان لها أبلغ الأثر في محبة الناس للإسلام، والدخول فيه عن قناعة ويقين.

أفغير المسلمين يقوم بمثل هذا؟ آلغرب يقدم لنا مثل هذه النماذج؟

الجواب ما تراه وتسمعه؛ فمن أين خرج هتلر، وموسوليني، ولينين، وستالين، ومجرمو الصرب؟ أليست أوربا هي التي أخرجت هؤلاء الطواغيت الشياطين الذين قتلوا الملايين من البشر، والذين لاقت البشرية منهم الويلات إثر الويلات؟ ألا يعد أولئك هم

طلائع حضارة أوربا؟ فمن الهمج العتاة القساة الأجلاف إذاً؟

ثم من الذي صنع القنابل النووية والجرثومية، وأسلحة الدمار الشامل؟ ومن الذين لوثوا الهواء بالعوادم، والأنهار بالمبيدات؟ ومن الذي يدعم اليهود وهم في قمة الإرهاب والتسلط والظلم؟

وماذا صنعت أو تصنعه أمريكا من التسلط، والصلف، وهي التي تدعي أنها حاملة لواء السلام؟

فماذا صنعت بأطفال أفغانستان وشعبه البائس، وماذا ستفعله في العراق وغيره.

أما آن لكثير من مثقفينا أن يصحوا من رقدتهم؟ وألا ينظروا إلى الغرب بعين عوراء متغافلين عن ظلمه، وإفلاسه الروحي؟

هذه هي حال كثير من مثقفينا، ومع ذلك تجدهم يتصدرون وسائل الإعلام،

ويتطرقون لقضايا الأمة.

ولو صُرف النظر عن ناحيتهم، وتـرك حبلُهم على غاربهم_ لهبطـوا بكـثير مـن شبابنا في خسار يهتز لـه قلـب عـدوهم شماتةً وفرحاً.

والنفوس التي تـتزحزح عـن الإيمـان قيـد شـعرة تبتعـد عـن مراقـي الفلاح سبعين خريفاً.

فلا بد_ إذاً_ من أن نكون على مرقبة من دعايتهم، وننفق ساعات فـي التنـبيه علـى أغلاطهـم؛ لعلهـم ينصـاعون إلـى رشدهم، أو لعل الأمة تحـذر عاقبـة هـذا الذي يبدو على أفواههم.

فحقيـق علـى هـؤلاء أن يؤوبـوا إلـى رشـدهم، وأن يقـدموا لأمتهـم مـا يرفـع عنها الذلة والتبعية، وأن يبحثوا في سبل رقيها وفلاحها.

وإن من أعظم ما يعينهـم علـى ذلـك أن يدرسوا الإسلام دراسة واعية متأنيــة من مصادره الأصـيلة، وأن يكـون لـديهم

من الشجاعة الأدبيـة والأمانـة العلميـة_ مـا يبعثهـم إلـى الرجـوع إلـى الحـق والاعتزاز به.

أما السير في ركاب الغـرب، والأخـذ بكـل مـا يصـدر منـه دونمـا تمحيـص _ فـذلك محـض الهـوان، وعنـوان التخلـي عن العزة والكرامة؛ فالأمة العزيزة هي التي تعرف مقدار ما تعطي، ومقدار مـا تأخذ، ونوع ما تعطي ونوع ماتأخذ، وهي التي تعد نفسها بكل ما أوتيت من قـوة؛ حتى تحمي رأيها فيما تأخذ وما تدع، وما تعطي وما تمنع.

ورحم الله الشيخ محمد الخضر حسين إذ يقول:

كنـا بـدورَ هدايـة مـا مــن سَـنًىً ... إلا ومـن أنوارهـا يستوقد
كنا بحورَ معـارف مـا مــن حُلــىً ... إلا ومـن أغوارهـا يتصـيد
كنا جلاءًا للصدور من القـذى ... ولواؤنا بيد السعادة يعقـد
مـا صـافحت راحاتنـا دوحـاً ذوى ... إلا وأينع منه غصـن أغيـد
ومن احتمـى بطرافنـا ... آوى إلـى الحـرم

الســـــامي الــــذُّرا — الـــــي لا يضـــــهد
لا يمْتري أهْلُ التمدن — لو لم يســيروا إثرنــا
أنهـــــــــــــــم — لــــم يصـــــعدوا
فَســلوا مــتى شــئتم — من أمة إلا لنا فيهــا
سَـــــراتَهُمُ فمـــــا — يـــــــــــــــد
لا فخـــر فـــي الـــدنيا — تعنـــو لهـــا الأمـــم
بغيـــــر مجـــــادة — العظـــام وتســـجد
لكننــا لــم نــرعَ فيهــا — بـــــذمامها مـــــن
حُرْمـــــــــــــــةً — الرقــــاب تقلــــد
أخذت مطيَّات الهوى — فـــي كـــل لاغيـــة
تحـــــدو بنـــــا — كســـــاعة نولـــــد
حتى انزوى من ظلها — فيه مقام يستطاب
الممـــــدود مـــــا — ومقعـــــــــــــد
أبناءَ هذا العصـر هـل — تشــفي غليلا حــره
من نهضة — يتصعد

ورحم الله الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي إذ يقول:

فــأين الــذي رفعتــه — وأيــن الــذي شــيَّدته
الرمـــــــــــاح — القُضُـــــــــبْ
وأين شواهقُ عزٍّ لنا — تكــاد تمــس ذراهــا
لقــد أشــرق العلــم — الســــــــحب
مـــــن شـــــرقنا — ومـــا زال يَضْـــؤُلُ
وكنا صعدنا مراقـي — حـــــتى غـــــرب

المعالي ... فأصبح صاعدنا في صبب
وكم كان منا ذوو همة ... سمت بهم لمعالي الرتب
وكم من هِزَبْرٍ تهز البرايا ... بوادره إن ونى أو وثب
وأقْسِمُ لولا اغترار العقول ... لما كف أربابها عن أرب
ولولا الذي دَبَّ ما بينهم ... لما استصعبو في العلا ما صعب

3_ التوبة الإعلامية: فالإعلام في كثير من بلاد المسلمين يروِّج للرذيلة، ويزري بالعفة والفضيلة، فتراه يصب في قالب العشق والصبابة، والترف والهزل، ويسعى لتضليل الأمة عن رسالتها الخالدة.

فجدير بإعلام المسلمين أن تكون له شخصيته المتميزة، وأن يكون داعية إلى كل خير وفلاح.

وواجب على كل إعلامي مسلم أن يتضلع بمسؤوليته، وأن يدرك حجم

الأمانة الملقاة على عاتقه، فهو يرسل الكلمة فتسير بها الركبان؛ فله غنمها، وعليه غرمها.

4_ التوبة من التفرق والتدابر: فالناظر في أحوال الأمة يرى عجباً؛ فأعداؤها يحيطون بها من كل جانب، ويكيدون لها ويتربصون بها الدوائر.

ومع ذلك ترى الفرقة، والتدابر، والتنافر؛ فالعقوق، والقطيعة، وإساءة الظن، وقلة المراعاة لحقوق الأخوة في الله_ تشيع في أوساط المسلمين.

ولا ريب أن ذلك مما يسخط الله _عز وجل_ ومما يفرح الأعداء، ويذهب الريح، ويورث الفشل.

فواجب على الأمة أن تجمع كلمتها على الحق، وأن ينبري أهل العلم والفضل والإصلاح لرأب الصدع، ونبذ الفرقة.

قال ربنا _تبارك وتعالى_: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا

تَمُـــوتُنَّ إِلا وَأَنْتُـــمْ مُسْـــلِمُونَ[102]
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعـاً وَلا تَفَرَّقُـوا
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَـأَلَّفَ بَيْـنَ قُلُـوبِكُمْ فَأَصْـبَحْتُمْ بِنِعْمَتِـهِ
إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِـنَ النَّـارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُـمْ آيَـاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[103]آل عمران.

5_ التوبـة مـن التـبرج: تلـك السـنة الإبليسـية الجاهليـة الـتي فتحـت علـى المسلمين باب شر مستطير.

ففـي أكـثر بلـدان المسـلمين تخلـت النسـاء عـن الحجـاب، وأخـذن بـالتبرج، والتهتك، والتبذل، والسفور على تفـاوت فيما بين البلدان.

وهذا الصنيع نذير شر وشؤم، ومؤذن لعنـة وعـذاب؛ ذلـك أن التـبرج مـوجب لفساد الأخلاق، وضـيعة الآداب، وشـيوع الجرائـم والفـواحش، وانعـدام الغيـرة، واضمحلال الحياء.

وبسـببه تتحطـم الروابـط الأسـرية،

وتنعدم الثقة بين أفرادها.
وهـذا التـبرج لـم يكـن معروفـاً عنـد المسـلمين، وإنمـا هـو سـنة جاهليـة انقطعت بالإسلام.
قـال_ تعـالى_ مخاطبـاً نسـاء المسـلمين[وَلا تَبَرَّجْـنَ تَبَـرُّجَ الْجَاهِلِيَّـةِ الأُولَى] الأحزاب: 33.
وفي العصور المتـأخرة دخـل التـبرج علـى المسـلمين بسـبب الإعـراض عـن هداية الدين، وبسـبب الحملات الضـارية على المرأة المسـلمة؛ كـي تتخلـى عـن وقارها وحيائها وحشمتها ودينها.
كما دخل علـى المسـلمين مـن بـاب التقليد الأعمى للغرب ومحاولـة اللحـاق بركابه؛ لئلا يقال: متخلفون رجعيون!
وإذا أنكـر منكـر علـى أولئـك الـذين يـدعون إلـى التـبرج والسـفور وصـموة بالتخلف والرجعيـة؛ فهـل تقليـد الغـرب في مستهجن عاداته إلا التخلـف بعينـه؟ أو ليس هذا التقليد ممـا يزيـد الشـعوب

المقلدة وهناً على وهن؟ !

وإذا أردت الدليل على أن التبرج تخلف عن ركب الحضارة فانظر إلى انحطاط خصائص الجنس البشري في الهمج من العراة الذين لا يزالون يعيشون في المتاهات والأدغال على حال تقرب من البهيمية؛ فإنهم لا يأخذون طريقهم في مدارج الحضارة إلا بعد أن يكتسوا.

ويستطيع المراقب لحالهم في تطورهم أن يلاحظ أنهم كلما تقدموا في الحضارة زادت نسبة المساحة الكاسية من أجسادهم.

كما يلاحظ أن الحضارة الغربية في انتكاسها تعود في هذا الطريق القهقرى درجة بعد درجة حتى ينتهي الأمر إلى العري الكامل في مدن العراة التي أخذت في الانتشار بعد الحرب العالمية الأولى، ثم استفحل داؤها في السنوات الأخيرة.

ونحن إذا احتجنا إلى الاستفادة من خبرة الغرب، وتفوقه في الصناعات الآلية التي كانت سبباً في مجده وسيادته_ فمن المؤكد أننا لسنا في حاجة إلى استيراد قواعد في السلوك والتربية والأخلاق التي تدل الأمارات والبوادر على أنها ستؤدي إلى تدمير حضارته، والقضاء عليها قضاءًا تاماً في القريب العاجل.

إننا في حاجة إلى مواد البناء؛ لأن لدينا من عوامل الضعف والهدم ما يكفي، ومن مصائبنا _نحن الشرقيين_ أننا لا نأخذ المصائب كما هي، بل نزيد عليها ضعفنا فإذا هي رذائل مضاعفة.

ومع ذلك تجد من أبناء جلدتنا من لا يصيخون السمع إلى هداية الدين، بل هم يلحدون في آيات الله، فيميلون بها عن وجهها حيناً، ويجادلون فيها أشد المجادلة حيناً آخر.

في الوقت الذي يَخْضعون لهذه

المزاعم الداعرة، ويرونها فـوق النقـاش والمراء.

هـؤلاء قـوم لا تقـوم عنـدهم الحجـة بـالقرآن والسـنة، ولكنهـا تقـوم بهـذه الظنون والأوهام؛ فإذا عارضتهم بالثابت مـن الشـرع_ وهـم يزعمـون أنهـم مسـلمون_ لـووا رؤوسـهم، وقـالوا: نحدثك فـي العلـم فتحـدثنا فـي الـدين؟ وكـأن هـذه الأوهـام عنـدهم أثبـت مـن الشرع المطهر.

أترى فرقاً بين هـؤلاء وبيـن أمـم قـد خلـت مـن قبلهـم مـن الضـالين كـانوا يقولون إذا ذُكِّروا بآيات الله: [قَدْ سَمِعْنَا لَـوْ نَشَـاءُ لَقُلْنَـا مِثْـلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِيـنَ] الأنفـال: 31؛[لِيَحْمِلُـوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَمِـنْ أَوْزَارِ الَّـذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْـرِ عِلْـمٍ أَلا سَـاءَ مَـا يَزِرُونَ] النحل:25.

وبالجملة فإن الحقيقة الماثلة للعيـان تقول: بأن التـبرج أقـرب الوسـائل إلـى

تلويث الأعراض، ونكد العيش، وأنه إلى ابتذال المرأة أقرب منه إلى كرامتها، وإلى عنائها أقرب منه إلى راحة بالها.

قال الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي × :=وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاء سعرها في الاجتماع، وصونها من التبذل الممقوت+.

وقال:=وأساس الفضيلة في الأنوثة الحياء؛ فيجب أن تعلم الفتاة أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجَّمت؛ أي توقَّحت، أي تبذَّلت_ استوى عندها أن تذهب يميناً، أو تذهب شمالاً، وتهيأت لكل منهما ولأيهما اتفق.

وصاحبات اليمين في كنف الزوج، وظل الأسرة، وشرف الحياة، وصاحبات الشمال ما صاحبات الشمال... ؟+.

وقال: =فكل ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفتيات وأجسامهن في الطرق_ فلا تَعُدَّنَّه من

فرط الجمال، بل من قلة الحياء+.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجب على الأمَّة المسلمة أن تتوب من التبرج والسفور، وأن تحاربه بكل ما أوتيت من قوة.، وأن تدعو في الوقت نفسه إلى لزوم الحجاب والحشمة للمرأة المسلمة؛ ففي الحجاب العفة، والستر، والطهر، والسلامة من الفتنة، والنجاة من الوعيد وغير ذلك من فضائل الحجاب.

كما يجب على المرأة المسلمة أن تحافظ على حجابها، وأن تعتز به، وألا تلتفت إلى دعاوى المبطلين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وأن يكون حجابه مستوعبا جميع بدنها بما في ذلك الوجه والكفان، وألا يكون الحجاب زينة في نفسه، وأن يكون صفيقاً لا يشف، وأن يكون فضفاضاً غير ضيق، وألا يكون مُبخَّراً مطيباً، وألا يشبه لباس الرجل، أو الكافرات، وألا

يكون لباس شهرة.

فإذا كانت كذلك فـأحْرِ بهـا أن تسـعد في نفسها، وأن تَسعدَ الأُمةُ بها.

6_ التوبة مـن التقصـير فـي الـدعوة إلى الله والأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر: فأمة الإسلام هي الأمة القوامـة على الأمم، وهي الشاهدة على الأوليـن والآخرين.

والبشرية جمعاء بـأمسّ الحاجـة إلـى هداية الإسلام، ومـع ذلـك تجـد التقصـير في جانب الدعوة إلى الله.

والتبعة في ذلك تقع علـى أهـل العلـم بخاصة؛ فما بال كثير منهم يعـرف مناهـج الصلاح، ويبصر طائفة من قومه يتهافتون علـى عمايـة، أو يهيمـون فـي جهالـة ولا تنهض به الهمة؛ ليعمل على إفاقتهم مـن سكرتهم، وإراءتهم معالمَ فوزهم؟.

ومـا بـال الخلاف يـدب فـي صـفوف كـثير مـن الـدعاة، فيفشـلهم، ويـذهب ريحهم؟

وما بال كثير منهم يخطىء سبيل الحكمة، ويؤثر مصلحته_ الخاصة على مصلحة الأمة؟

وما بال كثير منهم ينزوي وينطوي على نفسه غير مكترث بمصير الأمة، وغير مبال بوعيد الله لمن كتم العلم؟

وما بال الشرك يضرب بجرانه في كثير من بلاد المسلمين على مرأى ومسمع من أهل العلم دون أن يُغيَّر أو ينكر؟

وما بال القبور تشيد، وتعظم، ويطاف عليها، وتهدى لها النذور، ويدعى أصحابها من دون الله _عز وجل_؟

إن السكوت عن الدعوة جرم عظيم، وذنب يجب التوبة منه؛ ذلك أنه إذا انزوى العارفون بوجوه الإصلاح رفع البغي لواءه، وبقي إخوان الفساد يترددون على أماكن المنكرات.

والبغيُ يضرب على الأمة الذلةَ والمسكنةَ، والانهماكُ في المنكرات

يميت خصال الرجولة من نحو الشجاعة، وشدة البأس، والبذل في سبيل الخير.

وإذا تفشى وباء الفساد تداعت الأخلاق الفاضلة إلى سقوط، ونضب ماء الحياء من الوجوه، ووهنت رابطة الاتحاد في القلوب، وتضاءلت الهمم عن معالي الأمور، وقلّت الرغبة في الآداب والعلوم.

وما عاقبة الأمة المصابة بالذل والإحجام، والجهل والتفرق، وقلة الإنفاق في سبيل البر إلا الدمار.

ولا يحسب الذين ينقطعون عن إرشاد الضالين، ووعظ المسرفين أن إقبالهم على شأنهم، واقتصارَهم في العمل الصالح على أنفسهم يجعلهم في منجاة من سوء المنقلب الذي ينقلب إليه الفاسقون؛ فالذي جرت به سنة الله في الأمم أن وباء الظلم والفسوق إذا ضرب في أرض، وظهر في أكثر

نواحيها_ لا تنزل عقوبته بديار الظـالمين أو الفاسقين خاصة، بل تتعداها إلـى مـا حولهـا، وترمـي بشـرر يلفـح وجـوه جيرانهم الذين تخلوا عن نصيحتهم، ولـم يأخذوا على أيديهم.

قال_ تعالى_:[وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً] الأنفال: 25.

وجاء فـي صـحيح مسـلم عـن زينـب بنت جحـش_ رضـي الله عنهـا_ قـالت: قلـت: يـا رسـول اللـه أنهلـك وفينـا الصالحون؟

قال: =نعم؛ إذا كثر الخبث+.

ومن البلية في سكوت أهل العلم أن العامة يتخذونه حجة على إباحة الأشـياء أو استحسـانها؛ فـإذا نهيتهـم عـن بدعـة سيئة، وسقت إليهم الدليل علـى قبحهـا ومخالفتها لما شرع اللـه_ كـان جـوابهم أنهم فعلوها بمرأى أو مسـمع مـن فلان مـن أهـل العلـم ولـم يعـترض فعلهـم بإنكار!.

ومن أثر التهاون بالإرشاد أن يتمــادى المفسـدون فـي لهـوهم، ولا يقفـوا فـي اتبـاع شـهواتهم عنـد غايـة؛ فتقـع أعيـن الناس على هـذه المنـاكر كـثيراً، فتألفهـا قلـوبهم، حـتى لا يكـادوا يشـعرون بقبـح منظرها، أو يتفكرون في سوء عاقبتها.

ومن أثر هـذا أن يقبـل عليهـم الحــق بنوره الساطع ووجهـه الجميـل، فتجفـل منه طباعهم، وتجفوه أذواقهــم لأول مــا يُشْرف عليها.

وإذا كان الأمر كذلك كان لزاماً علــى الأمــة أفـراداً وجماعـات أن تتـوب مـن التقصير فـي الـدعوة إلـى اللـه، والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقوم كل فرد بحسبه بما أوجب الله عليه مـن نصرة دين الله.

هذا بلسانه، وهذا بقلمه، وهذا بمــاله، وهذا بجاهه، ولكل وجهة هو موليها، وقد علم كل أناس مشربهم.

ومما ينبغي التنــبيه عليـه أن ارتكـاب

الذنوب لا يسوغ تـرك الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر، والـدعوة إلـى اللـه: فكثيرٌ من الناس إذا قصَّر فـي الطاعـة، أو وقــع فــي المعصــية_ تــرك الأمــر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله؛ بحجة أنـه مُقَصِّـر، وأنـه يفعـل خلاف ما يأمر به، وأنه يخشى أن يـدخل في الوعيد لمن دعا وترك ما يدعو إليــه كما في قوله_ تعالى_: [أَتَأْمُرُونَ النَّـاسَ بِـالْبِرِّ وَتَنسَـوْنَ أَنفُسَـكُمْ] البقـرة: 44، وقوله: [كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَـا لا تَفْعَلُونَ] الصف: 3.

وهـذا خطـأ يجـب علـى المسـلم أن يحـذره ويتجنبـه؛ فـترك أحـد الواجـبين ليس مسوغاً لترك الآخر، والـذم الـوارد في

النصوص إنما هو لـترك المعـروف، لا للأمر بالمعروف.

قال_ تعالى_ : [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَـى

ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[78]كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[79] المائدة .

فانظر كيف نعى الله عليهم ترك التناهي مع أنهم مشتركون في المنكر؛ فلا يجوز للمسلم أن يجمع بين إساءتين، وإلا لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن حزم ×: =ولو لم يَنْهَ عن الشر إلا من ليس فيه شيء منه، ولا أمر بالمعروف إلا من استوعبه_ لما نهى أحد عن شر، ولا أمر بخير بعد النبي "+.

وقال النووي ×:=قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال، ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمرُ وإن كان مُخِلاً بما يأمر به، والنهيُ وإن كان متلبساً بما ينهى عنه؛ فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه، وينهاها، ويأمر

غيره، وينهاه؛ فـإذا أخـل بأحـدهما كيـف يباح له الإخلال بالآخر؟+

قـال سـعيد بـن جـبير × :=لـو كـان المرء لا يأمر بـالمعروف، ولا ينهـى عـن المنكر حتى لا يكون فيه شـيء مـا أمـر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر+.

قال الإمام مالك × معلقاً على قـول سعيد بن جبير: = وصـدق سـعيد؛ ومـن ذا الذي ليس فيه شيء+.

وقـــال الحســـن لمُطَـــرّف بـــن عبدالله:=عظْ أصحابك.

فقـال: إنـي أخـاف أن أقـول مـا لا أفعل!

قـال: يرحمـك اللـه، وأيُّنـا يفعـل مـا يقول؟ يود الشـيطان أنـه قـد ظفـر منـا بهذا؛ فلم يأمر أحـد بمعـروف، ولـم ينـه أحد عن منكر+.

وقال الطبري ×:=وأما من قـال: لا يـأمر بـالمعروف إلا مـن ليسـت فيـه وصمة، فإن أراد أنـه الأوْلـى فجيِّـد، وإلا

فيستلزم سد باب الأمر بالمعروف إذا لم يكن هناك غيره +.

وعلى هذا فعلى من وقع في معصية، أو قصَّر في طاعة ألا يدع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله حسب قدرته واستطاعته؛ فلربما اهتدى على يده عاص، أو أسلم كافر، أو تسبب في ذلك؛ فكان له من الأجر مثل ما لهم من غير أن ينقص ذلك من أجورهم.

ولا يفهم مما سبق أنه لا بأس في ترك المعروف وفعل المنكر للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

بل يجب عليه فعل المعروف، وترك المنكر؛ لأنه يعرض نفسه لغضب الله عند التساهل في هذا.

بل ينبغي له أن يكون أولَ ممتثل لما يأمر به، وأولَ مُنْتَهٍ عما ينهى عنه.

وغاية ما في الأمر أن فعل المعروف، وترك المنكر ليس شرطاً

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر؛ فلا يقال لمن أمر بالمعروف، ولم يفعلــه أو نهــى عـــن المنكـــر، وفعلـــه: لا تـــأمر بـالمعروف، ولا تنـهَ عـن المنكـر، وإنمـا يقال له: داوم على أمرك ونهيـك، واتـق الله فيما تأتي وما تذر.

وإذا كان هذا في شأن من هـو عـاص أو مقصـر_ فكيـف إذا كـان الشـخص ذا علـــم، وصـــلاح وهـــو مقصـــر بـــالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

فعليـــه أن يتـــوب مـــن ذلـــك، وأن يستدرك ما فـات؛ لأن اللـه سـائله عـن علمه ماذا عمل به [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] هود: 7.

نظرة في حال المجتمعات البعيدة عن الله

وبعد أن تبين لنا حاجة الأمة إلى التوبة، وإلى التميز، والحذر من تقليد الأعداء الكفار في مستهجن العادات_هذه نظرة في حال المجتمعات البعيدة عن الله؛ فهناك من يرى أن السعادة لا تتحقق إلا بإتْباع النفوس هواها، وإرسالها مع كافة رغائبها وشهواتها؛ بحيث لا يبقى عليها حسيب ولا رقيب، ولا يقف في طريقها دين، أو عرف، أو نحو ذلك؛ فهذا سر السعادة، وتلك جنة الفردوس عند أولئك.

ولهذا ترى نفراً غير قليل من هؤلاء يدعو إلى الإباحية، وإلى فتح أبواب الحرية؛ لتتخلص المجتمعات من كبتها وعقدها، ولتنعم بالسعادة كما يزعمون!

فهل هذا الكلام صحيح؟ وهل تلك المجتمعات الكافرة تنعم بالسعادة حقاً؟

والجواب ما تراه وتسمعه؛ فها هي

أمم الكفر قد فتحت أبواب الحرية على مصاريعها؛ فلم يَعُدْ يَرْدَعُها دين، أو يَزُمُّها ورعٌ، أو يحميها حياء؛ فمن كفر وإلحاد إلى مجون، وخلاعة وإباحية مطلقة، ومن خمور ومخدرات إلى زناً، ولواط، وشذوذ بكافة أنواعه مما يخطر بالبال، ومما لا يخطر؛ فكيف تعيش تلك الأمم؟ وهل وصلت للسعادة المنشودة؟

والجواب: لا؛ فما زادهم ذلك إلا شقاءًا وحسرةً؛ فسنة الله _ عز وجل_ في الأمم هي سنته في الأفراد؛ فمتى أعرضت عن دينه القويم أصابها ما أصابها بقدر بعدها وإعراضها.

ولهذا تعيش تلك الأمم حياة شقية تعيسة صعبة معقدة؛ حيث يشيع فيها القلق، والاضطراب، والتفكك، والقتل، والسرقة، والشذوذ، والاغتصاب، والمخدرات، وأمراض الجنس، وتفقد فيها الطمأنينة، والراحة، والمحبة، والبر، والصلة، والتعاطف، والتكافل إلى غير

ذلك من المعاني الجميلة.

قال _ تعالى _ : [وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] طه: 124.

كيف تسعد تلك الأمم وفي داخل كل إنسان منها أسئلة محيرة؟ من خلق الحياة؟ وما بدايتها؟ وما نهايتها؟ وما سر تلك الروح التي لو خرجت لأصبح الإنسان جماداً؟

إن هذه الأسئلة قد تهدأ في بعض الأحيان؛ بسبب مشاغل الحياة، ولكنها لا تلبث أن تعود مرة أخرى.

وكيف لا تحرم تلك الأمم السعادة وهي تعيش بلا دين يزكي نفوسها، ويضبط عواطفها، ويردعها عن التمادي في باطلها، ويسد جوعتها بالتوجه إلى فاطرها؟

إن الكنيسة بتعاليمها المحرفة لا تستطيع أن تجيب عن الأسئلة الماضية بدقة ووضوح، ولا تملك منهجاً يزكي

النفـوس، ويقنـع العقـول، وتسـير عليـه أمور الناس بانتظام.

ولقـد زاد هـذا الأمـر ضـراوة بعـد أن تراجعت الكنيسة أمام ضربات الإلحاد.

فما أغنت الحرية المزعومة والإباحية المطلقة عن تلـك المجتمعـات فـتيلاً أو قطميراً، ولا جلبت لها السـعادة الحقـة، ولا الحياة الكريمة.

ولهذا يبحث الناس هناك عما يريحهم من هذا العناء والشقاء؛ فمنهم من يلجـأ إلى المخدرات والمهدئات التي تضاعف البلاء، وتزيد في الشقاء.

ومنهـم مـن يـروي غليلـه بالشـذوذ الجنسي، حـتى يفقـد إنسـانيته وصـحته؛ ويكون عرضة للإصابة بـأمراض الشـذوذ المتنوعـــة كـــالزهري، والســـيلان، والهربـس، والإيـدز، ومـا يصـاحب هـذه الأمراض من ضيق وتكدر.

ومنهـم مـن يـروي غلتـه بالسـطو، والسـرقة؛ حـتى إن النـاس هنـاك لا

يكـــادون يـــأمنون علـــى أمـــوالهم، وممتلكاتهم؛ بـل لقـد أصـبحت السـرقة تعتمـــد علـــى الدراســـة والتكنولوجيـــا الحديثــة؛ المجهــزة بأحــدث الوســائل والأســاليب، القائمـــة علـــى أحـــدث المبتكرات والتخطيط لكل عملية سطو.

ومنهـم مـن يسـلك طريـق القتـل؛ ليتشـفى مـن المجتمـع، ويطفـئ نـار حقـده، فـتراه يتحيـن الفـرص، وينتهـز الغِرَّة؛ ليهجم على ضحية يفقدها الحياة، ثم يبحث عن ضحية أخرى.

بـل لقـد أصـبح القتـل عنـد بعضـهم متعة، ونوعاً من اللذة.

وكثيراً ما يكون القتل لأتفه الأسباب، حتى إن الواحد قد يقتل أقرب الأقربيـن إليه.

ومنهـم مـن يبلـغ بـه الشـقاء والهـم غايته؛ فلا يجد ما يسعده، أو يريحـه مـن همومه وغمومه، ولا يرى مـا ينفـس بـه كربته، أو يعينه على تحمل أعباء حيـاته؛

فيلجأ حينئذ إلى الانتحار؛ رغبة في التخلص من الحياة بالكلية.

ولقد أصبح الانتحار سمة بارزة في تلك المجتمعات، وصارت نسبته تتزايد وتهدد الحضارة الغربية بأكملها.

ولقد أقلق كثرة الانتحار علماء الاجتماع في تلك البلاد؛ حيث أصبح عدد المنتحرين يفوق عدد القتلى في الحروب، وفي حوادث السيارات.

أما طرق الانتحار فتأخذ أساليب متنوعة؛ فهذا ينتحر بالغرق، وذاك بالحرق، وهذا بابتلاع السموم، وذاك بالشنق، وهذا بإطلاق الرصاص على نفسه، وذاك بالتردي من شاهق، وهكذا.

أما أسباب الانتحار فمعظمها تافهة حقيرة، لا تستدعي سوى التغافل، وغض الطرف عنها؛ فهذا ينتحر بسبب الإخفاق في امتحان الدراسة أو الوظيفة، وذاك بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، أو هزيمة الفريق الذي يميل

إليه، وهذا ينتحر بسبب وفاة عشيقته، وهذه تنتحر بسبب تخلي عشيقها عنها، بل ومنهم من انتحر بعدما توفي كلبه كما فعل (جاك أشورت) وكان عمره 46 سنة.

بل إن هناك من ينتحر بلا سبب ظاهر، ويبقى السبب الأول للانتحار وهو الكفر بالله، وما يستتبعه من الضنك، والشدة، وقلة التفكير في المصير.

والغريب في الأمر أن نسبة كبيرة من المنتحرين ليسوا من الفقراء؛ حتى يقال: إنهم انتحروا بسبب قلة ذات اليد، وإنما هم من الطبقات المغرقة في النعيم والبعيدة الصيت والشهرة، والرفيعة الجاه والمنصب، بل وينتشر في طبقات المثقفين.

ومما يلفت النظر أن أشد البلاد انحلالاً أكثرها انتحاراً.

ومن الأشياء التي استحدثوها لمحاربة التخفيف من الانتحارات

المتزايدة_ إنشاءُ مركز يتلقى مكالمـات المُقْدِمين علـى الانتحـار، أو مـن لـديهم مشكلة عاطفيـة، أو الـذين يعـانون مـن ضيق الصدر.

وهــذه الخــدمات تقــدم ليلاً ونهــاراً وبالمجان.

والعجيب في الأمر أن يكون للانتحــار مؤيــدون وأنصــار، حيــث تكــونت فــي بريطانيـا جمعيـة للمنتحريـن، وأصـدرت كُتَيِّباً وأخذت توزعه على أعضائها الـذين يحبذون ويؤيدون حق المرضى بالانتحـار عندما يتألمون، وعندما يقرر الطبيب أن حالتهم ميؤوس منها.

وقــد نَــص الكــتيب علــى الوســائل السـريعة والفعالـة وغيـر المؤلمـة الـتي يمكن أن تساعد الساعين إلـى الانتحـار على تنفيذ رغبتهم!.

فلمـاذا ينتحـر هـؤلاء؟ ولمـاذا يسـتبد بهم الألم، ويذهب بهم كل مذهب؟

والجواب: أنهم فقدوا السبب الأعظم

للسعادة، ألا وهو الإيمان بالله _ عز وجل_ فلم تغن عنهم حريتهم شيئاً، ولم يجدوا ما يطفىء لفح الحياة وهجيرها وصخبها؛ فلا يكادون يحتملون أدنى مصيبة تنزل بهم.

فهل اطلع على تلك الحال من يريدون أن تكون بلاد الإسلام كتلك البلاد تهتكاً، وتوقحاً، ودعارة، وفساداً؟

وهل يريدون أن يكون مصير بلاد الإسلام كذلك المصير؟

إن كانوا لم يطلعوا فتلك مصيبة، وإن كانوا مطلعين فالمصيبة أعظم.

الخاتمة

هذه مقتطفات يسيرة مختصـرة تنبـه على وجوب التوبة العامة من الأمة.

ومن أراد الاسـتزادة والعـزو فليرجـع إلـى كتـاب =التوبـة وظيفـة العمـر+ لكاتب هذه الصفحات؛ ففي ذلك الكتاب تفصيل لكثير مما أجمل هنا.

فلعـل فـي هـذه الصـفحات موعظـةً وذكـرى، ولعـل الأمـة تتـوب إلـى ربهـا، وتحسن ظنها به _جـل وعلا_ وأن تـدرك أن الصــبر والتقــوى كفيلان بــرد كــل عــدوان، قــال اللــه _عــز وجــل_: [إِنْ تَمْسَسْـكُمْ حَسَـنَةٌ تَسُـؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَـا وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُـونَ مُحِيطٌ]آل عمران:120.

وقال _تبارك وتعـالى_: [لَتُبْلَـوُنَّ فِـي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِـنَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِـنْ قَبْلِكُـمْ وَمِـنَ الَّـذِينَ

أَشْـرَكُوا أَذىً كَثِيـراً وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِـنْ عَـزْمِ الأُمُـورِ]آل عمـران: 186.

اللهم مُـنَّ علينـا وعلـى أمتنـا بالتوبـة الـتي ترضـيك عنـا، وصـلى اللـه وسـلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

محمد بن إبراهيم الحمد
5/8/1423
الزلفي 11932
ص.ب: 460
www.toislam.org

الفهرس

.المقدمة_	3
نماذج مجملة لبعض الذنوب _ والمنكرات الشائعة.	4
نموذج لتوبة الأمة من القـرآن _ الكريم _قصة يونس عليه السلام_	4
.نماذج مفصلة لذنوب شائعة _	6
.التوبة من الإسراف _1	6
التوبة من التبعية الثقافية _2 والفكرية.	12
.التوبة الإعلامية _3	23
.التوبة من التفرق والتدابر _4	24
التوبة من التبرج _5	25
التوبــة مــن التقصــير فــي _6	3

الدعوة إلى الله والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر.	2
نظـرة فـي حـال المجتمعـات _ البعيدة عن الله.	41
_ الخاتمة.	49
_ الفهرس.	51